

مكانة المعتقدات الشعبية في المجتمع العربي

أ . حشافي لخضر

كلية الآداب والعلوم الإجتماعية والإنسانية، جامعة الجلفة

مقدمة : إن عالم المعتقدات الشعبية شاسع لا تحده حدود الفكر الإنساني ولا تقيدته الممارسات اليومية ، فمنذ أن وجدنا في هذه الحياة وجدنا أنفسنا نعيش في مجتمع محاط بأفكار وطقوس وعادات ومراسيم شعبية ضاربة بجذورها في القدم، وأول ما قد يتبادر إلى تفكيرنا هو التساؤل عن أصل هذه المعتقدات عما إذا كانت قد نبعت من نفوس أبناء الشعب عن طريق الكشف أو الرواية أو الإلهام ، أو أنها أصلا معتقدات دينية ثم تحولت في صدور الناس إلى أشكال أخرى بفعل التراث القديم الكامن على مدى الأجيال.

وعلى هذا الأساس سنقف عند الشخصية العربية ومقوماتها لعلنا نصل إلى ذلك الرباط الذي يمثل صلة وصل بين الفضاء بين الثقافي والاجتماعي ، والذي على ضوئه سنحاول إبراز ما مدى تأثير المعتقدات الشعبية كجزء من الحياة الثقافية للمجتمع العربي على بيئة الأفراد العقلية والفكرية، دون تخصيص الحديث عن منطقة دون أخرى ، لا لسبب إلا لاشتراك أفراد المجتمع العربي في وحدة ثقافية تمخضت عن تعاقب مختلف الثقافات والأمم عليه وما أفرزه من سلوكات وعادات ومعتقدات كونت في غالب الأحيان هوية هذا الشعب على الرغم من التباين الكبير في تركيبته الاجتماعية.

ولكي نحيط بهذه الظاهرة فلا بد في البدء من إدلال هذا المفهوم (لغة واصطلاحاً) ومعرفة دلالاته وقضائيه .

فالاتقاد لغة من فعل اعتقد وأصل ميزانها الصرفي هو "عقد" فعل ثلاثي مزيد لحرفين - الهمزة والتاء - على وزن افتعل ولها أوجه استعمالات مختلفة وأنها ترمي في الظاهر إلى معنى يكاد يكون واحداً وهو التصديق بالأمر والإيمان به فيقال اعتقد بالشئ أو اقتصع به وأثبت له (359) ، والعقيدة هي ما عقد وصدق عليه المرء بضميره وعقله ، فلا يحتمل الشك أو الكذب أو التراجع أو التنازل عليه فالمعتقد انجاز الفكر (360) ، وعندما نقول آمن الإنسان بالشئ ، أي صدقه وأقنع بوجوده الفكر، فهو بصفة عامة الإيمان المطلق بما لا يستطيع الإنسان أن يراه أو يدركه بحواسه، وقد تكون المعتقدات في الأصل نابعة من أعماق أبناء الشعب ذاته عن طريق الكشف والإلهام.

359 - ابن منظور - لسان العرب - مادة عقد ، المجلد الثالث، دار صادر، الطبعة الأولى - بيروت 1992، ص 301.

360 - محمد مرتضى الزبيدي، تاج العروس من جواهر القاموس . منشورات دار مكتبة الحياة - بيروت ، لبنان 1306 ، ص 234.

أما لفظ الشعبية ، فبمنظور ساذج بسيط وعند الأغلبية من المجتمع ، عندما يتلفظ به ، أول ما يذهب إليه هؤلاء أنه أي أمر أو عادة أو تفكير أو اعتقاد صادر من الشعب أو متوجه إليه، إلا أن الصراع يبدو أعنف عند طبقة الأدباء والمفكرين ورجال السياسة وعلماء الاجتماع في تحديد هذا المفهوم ، وسواء اجتمعوا أم اختلفوا في تحديد المفهوم الصحيح لهذا المدلول، يبقى أن العرب أو العجم نشئوا في شكل قبائل ، ولعل هذا الطرح أيده القرآن الكريم فورد في التنزيل "وجعلناكم شعوبا وقبائل لتتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم"(361).

وقد قال ابن بري: الصحيح في هذا ما رتبته الزبير بن بكار وهو الشعب ثم القبيلة ثم العمارة ثم البطن ثم الفخذ ثم الفصيلة.(362)

قال أبو أسامة هذه الطبقات على ترتيب خلق الإنسان فالشعب أعظمها مشتق من شعب الرأس ثم القبيلة من قبيلة الرأس لاجتماعها ، ثم العمارة وهي الصدر ثم البطن ثم الفخذ ثم الفصيلة وهي الساق.(363)

إن المتمعن في قول الشيخ ابن بري أو أبي أسامة وعلى الرغم من اختلاف شكلي بسيط ، يعي حقيقة بأن الشعب قديما كان يمثل رأس الهرم الذي يقابله رأس الإنسان وما يحمل من أهمية في احتوائه على الدماغ مركز تفكير الإنسان وتقله وهو النواة الأولى التي تنفرع منها كل الأقطاب الأخرى . وقد يفهم من كلمة الشعبية كصفة ألحقت بالثقافة عند المفكر فايس كل ما تقبله الشعب وتبناه وتحمله.(364)

والذي يهمنا وراء كل هذا في كلمة "الشعبية" التي كان لزاما علينا الوقوف عندها بالحديث عن المعتقدات هو ما أشار إليه الدكتور محمد الجوهري قائلاً بالحرف الواحد : "تدل صفة الشعبية هنا على ما تدل عليه عبارة الأغاني الشعبية أو العادات الشعبية أي أننا نقصد المعتقدات التي يؤمن بها الشعب فيما يتعلق بالعالم الخارجي والعالم فوق الطبيعي" (365).

أما التعريف الاصطلاحي للمعتقدات يؤكد حسب الدراسات التي عمت علم الفولكلور، التغيير الذي طرأ على هذا المصطلح ، فقديما كانت المعتقدات تسمى الخرافات أو الخزعبلات خاصة عند

361 - القرآن الكريم ، سورة الحجرات ، الآية 13.

362 - ابن منصور ، المرجع السابق، ص 499.

363 - ايكة هو لتراكس، قاموس المصطلحات الانتروبولوجيا والفولكلور، ترجمة د.محمد الجوهري ،د حسن سامي ، دار المعارف بمصر 1973 ص 159.

364 - د . محمد الجوهري ، الدراسة العلمية للمعتقدات الشعبية، ج 1. دار الثقافة والنشر ، القاهرة ، 1983 ، ص 42 .

دار الثقافة والنشر ، القاهرة ، 1983 ، ص 42 .

365 - شوقي عبد الحكيم ، الفولكلور والأساطير العربية دار ابن خلدون ، بيروت ط 2 1983 ، ص 11 .

رجال الدين، لأنها لم تكن تمثل لهم أكثر من مفاهيم وأفكار لا علاقة لها بالدين ، فالمعتقدات راسخة في قلوب الناس ، تؤثر على نفوسهم وترسم لها مخيالاتهم أشكالاً مختلفة، وهي قناع كاشف يختلج في نفوس الشعب من إحساس وشعور وفرح وخوف وإيمان وتطير ، خاصة إذا ما تعلق الأمر بالعالم الروحي أو بعض مظاهر الواقع المعيشي ، وهي وليدة ظروف معينة تعيش معها الإنسان وأصبحت فيما بعد تشكل جزءاً من حياته لا يستطيع الاستغناء عنها.

إن المعتقدات الشعبية ليست وليدة حضارة معينة أو ديانة سماوية ولا زمان محدد ، ولا تقتصر على المجتمع البدائي ولا المتطور ، فهي عبارة عن شجرة ضاربة الجذور في الماضي متفرعة الأغصان في الحاضر لا يمكن قطع ظاهرها عن باطنها ، وهي بمنظور انتروبولوجي نتاج المراحل الفكرية الأولى للحضارة الإنسانية التي قبلت بمظاهر مراحل الحياة الجديدة ، لكن لم تقبل بالتخلي نهائياً عن خصائصها القديمة التي لا يزال الإنسان المعاصر يتغذى منها وبها، هذا الغذاء الذي تشكل رموز بدائية تجسدت في مختلف أنماط حياته ليتعامل معها برفق ويذهب به الأمر إلى حد الاستشهاد في سبيلها في أحيان أخرى.⁽³⁶⁶⁾

إن خلود هذه المعتقدات في ذهنية المجتمعات في حكم الرواسب الثقافية التي أثبتت وجودها ، لا تسمح لأي شخص أو سلطة أو هيئة كانت سياسية أو عسكرية القضاء عليها، وربما هذا هو السر في انتشارها بقوة رغم ما تعرفه من التحولات في الشكل.

من هنا يبدو أن المعتقدات التي فرضت نفسها في يوم مضى ، لم تعرف ضعفاً ولا تراجعاً، بل لا زالت تتعمق لتعطي الميكانيكية العقلانية والعملية ولو في أثواب وأشكال أخرى تتناسب ومستجدات العصر ، ولعل التفسير الوحيد لهذا الالتحام الموجود بين الإنسان والمعتقد يعود إلى التعامل الفطري العقائدي للإنسان مع الظواهر الاجتماعية والطبيعية قديماً ، فالأغلبية الساحقة من المجتمع تؤمن دائماً بما هو قديم في شكله أكثر مما هو حديث ، ومن الأمثلة الحية التي يمكن أن نستشهد بها هو اعتقاد المرء في كتاب مخطوط وما يحمله من بركة على عكس ما هو مطبوع ، وقد يؤمن في الجلوس بقرب ضريح أو ولي يمسح بترابه ويغتسل به متكرراً وصفة طبية يقدمها له أكبر المختصين في الطب.⁽³⁶⁷⁾

إن المعتقدات خبيئة في الصدور، من الصعوبة بمكان الكشف عنها، يلعب فيها الخيال الفردي دوره ليعطيها طابعاً خاصاً وهي كما يقول الدكتور "محمد الجوهري": مع تمكنها في أعماق النفس البشرية موجودة في كل مكان سواء عند الريفيين والحضر وعند الجهال كما عند الذين بلغو مرتبة

³⁶⁶ - أحمد أمين ، قاموس العادات والتقاليد والتعبيرات المصرية - لجنة التأليف والترجمة والنشر -

القاهرة - 1953 ص116.

³⁶⁷ - د . محمد الجوهري ، المرجع السابق ، ص 41 .

عالية من العلم والثقافة⁽³⁶⁸⁾، فقد أثبتت البحوث بأن المعتقدات قد وجدت طريقها إلى من توصلوا إلى أسمى المراتب والمناصب في العلم والمعرفة.

ونخص بالذكر أعلى مؤسسة تربوية من واجب المجتمعات أن تتباهى بها إنها الجامعة، التي يبدوا وأنها فقدت ذلك التجانس الفكري الذي كان من المفروض أن تمارسه في الميدان الثقافي للمجتمع فأصبحت بعيدة كل البعد عن الدور المنوط بها ، حيث لم يعد طلبة الجامعة بمنأى عن آفة الشعوذة والسحر ومختلف المعتقدات التي تتنافى أصلا مع ما يقره العلم ، بحيث أثبتت بعض التحقيقات الصحفية⁽³⁶⁹⁾ أن الوسط الطلابي أو غيره لا يهتمه اللجوء إلى الراقي أو المشعوذ أو الكاهن أو الطب النفسي العلمي أو المرباط بقدر ما يهتمه الوصول إلى علاج شاف يقيه شر ما أصابه من سحر أو جن أو غير ذلك.

وعلى سبيل المثال لا الحصر ونحن نتحدث عن معتقد السحر مثلا وما يتصل به من شعوذة ، لابد أن نتوقف عند قسم منه ، كثيرا ما أفسد العلاقات الاجتماعية في مجتمعنا، انه سحر تعطيل الزواج وما يسمى بتعيير السواد الأعظم -الربط- الذي يكون من وراء فشل الزواج- ليلة الزفاف - وقد يخص هذا النوع من السحر المرأة أو الرجل على حد سواء ، وفي الغالب ما يدفع بعائلة المتضررين إلى تسديد مبالغ مالية خيالية للسحرة والمشعوذين من أجل فك هذا الربط لأن الأضرار النفسية الناجمة عنه تكون بليغة، تجعل العروس أو العريس يعيشان ظروفًا حرجية تجلب لهما ولعائلتهما العار، حسب بعض المعتقدات المعروفة في مجتمعنا ، إلى جانب هذا المعتقد يمكن ذكر آخر أصبح يعتبر من مظاهر الحياة العصرية سواء في مجتمعنا أو في غيره، إنه التنجيم، هذه الظاهرة التي أصبحت تحتل حيزا كبيرا في صفحات الجرائد ، إن هذا المعتقد في الواقع ليس وليد اليوم ، بل له جذور ضاربة في القدم ، يعود تاريخه إلى العصر الجاهلي⁽³⁷⁰⁾ ، حيث كان محترفو التنجيم يقومون بالنظر إلى النجوم أي إلى الكواكب ويحسبون سيرها ومواقيتها، ليعلم بها أحوال العالم وحوادثه التي تقع في المستقبل وقد أصبح للظاهرة أبعاد نفسية هامة في حياة الأفراد بحيث ربطها البعض بمصيره فصار يتفاعل للأخبار السارة ويتشاءم للأخرى فيحدث له الفتور وضيق النفس والعجز عن أداء واجباته اليومية إلى درجة الانطواء على النفس.

368 - محمد منير - الأمراض النفسية في أوساط الطلبة - الرقية والشعوذة - المركز الجامعي بجيجل

جريدة الخبر، العدد 3172 بتاريخ 22 ماي 2001

369 - صفي الدين المبار كفوري، الرحيق المختم، شركة الشهاب للنشر والتوزيع، الجزائر 1987، ص 41

370 - د . أحمد رشدي صالح ، الأدب الشعبي ط 3 - مكتبة النهضة المصرية - القاهرة - 1971 - ص 142 .

ومما يستدعينا الوقوف عليه، هو ما عكسته هذه المعتقدات في حياتنا اليومية من تعظيم للأولياء فإننا إلى اليوم لا نزال نلمح تلك القباب البيضاء التي تعلوا البنايات والمساجد والمقابر كما أننا نجد أن معظم المدن والقرى والأحياء الشعبية، قد قرن اسمها باسم ولي .

ومما جعل العامة أكثر تصديقا للأولياء هي المظاهر الخارجية التي أحيطت بهم ، فنلاحظ أن المكان الذي يتخذة الولي، في اغلب الأحيان مكان منعزل قد يكون في قمم الجبال أو في الغابات أو في المقابر أو وسط المساجد أو في الأحياء الشعبية فيتخذ بيتا مبنيا بتراب أو حجر ويدهن بطلاء أبيض، ويغطي الضريح غالبا بأقمشة تكون بيضاء أو خضراء لها دليل عندهم على الحياة والإخلاص.

فالحياة البدائية البسيطة جعلتهم يتخذون من الولي رجلا ذو سلطان يقدر على ما لا يقدر عليه غيره، وحتى أثناء خطاباتهم له يستعملون عبارات تدل على التقدير والاحترام والترفع ويقيمون له وزنا وقيمة خاصة فهم يقرنون باسم كل ولي لقب "سيدي" وليس هذا من قبيل التأدب في الخطاب وإنما هو رسم من رسوم المعتقد الشعبي إزاء هذه الأرواح صاحبة السلطان.⁽³⁷¹⁾

كما أن من المعتقدات السائدة حول الأولياء ، أن العديد من العامة يقسمون باسم الولي الموجود في حيهم أو مدينتهم ، ويعتقد البعض في غضب الأولياء وسخطهم في كثير من الأحيان عندما يتنافى أمر ما مع طبيعتهم أو يحدث أمر غير مستحب في مدينتهم فيرجعون بعض الظواهر كالفيضانات والزلازل...إلى سخط الأولياء من أمرها.

ونجد بعضهم يقدم النذور للأولياء بالرجوع إليهم وتقديم أحسن ما لديهم إذا ما تحققت أمنياتهم كرجوع غائب أو زواج أو نجاح أو شفاء...

وتعددت البركة والشفاء عند هؤلاء الأولياء فنجدهم مختلفون في طرق الشفاء فمنهم من اشتهر بعلاج داء العيون، ومنهم من اشتهر بعلاج آلام الظهر وآخرون في عدة مجالات، فذلك الضريح عنده مكانة لا يستهان بها عندهم.

فكيف استطاعت هذه المعتقدات أن تتمكن من هذا المجتمع وتتل من أفرادها؟

إن انتشار المعتقدات في المجتمع التي ليست لها أية أصول في الدين، وليست لها حقائق علمية مثبتة ورغم ذلك نجدها تتداول بين الناس في سلوكياتهم وتصرفاتهم وتؤثر على تفكيرهم ومنطبتهم في ذاكرتهم، يتوارثونها جيلا بعد جيل ، جديرة بأن تفرض علينا تساؤلات : ترى كيف جاءت هذه المعتقدات إلى عالم الوجود ؟.

وما الذي ساعد على انتشارها وبقائها في المجتمع حتى أصبحت جزءا من حياتنا ورمزا لماضينا وحضارتنا ؟.

371 - ليلي قريش - القصة الشعبية ذات الأصل العربي ديوان المطبوعات الجامعية ، ص 154 .

هذه المعتقدات كانت ثمرة لظروف مختلفة في أي مجتمع ما ، وإن العامل الأساسي الذي ساهم بأكبر شكل على انتشارها وتداولها بين العامة هو التفكير الخرافي حيث ساعد على بقائها واستمرارها لأطول أمد ، والعوامل التي ساعدت على تفشي المعتقدات أو كما كانت تسمى قديما الخرافات عديدة ، من بينها الرحلات المختلفة بين المجتمعات حيث ساعد "اتجاه المغاربة الدائم إلى المشرق على نقل ما كان يروى هناك في مختلف الموضوعات مما تتذوقه الأوساط الشعبية من دين وتاريخ وطرائف وغرائب وخرافات ، فممكنهم من ذلك اندماجهم مع أهل الشرق ، مما جعلهم يتأثرون بالعادات والتقاليد الشعبية.. (قصص وحكايات).

وأيضا من بين الأسباب نجد التيار الصوفي وتعلق العامة بالأولياء وقدراتهم العجيبة والخرافة في نظرهم حيث "...ألصقت بقدرة الأولياء عدة خرافات ساعدت على اتساع شهرته بعد وفاته نجمت عن حياة الزهد التي عاش فيها الولي" (372).

وكذلك ساهمت الأضرحة في ذبوع الخرافات أكثر فأكثر ، فقبور الأولياء كانت من بين أهم العوامل التي ساعدت بشكل كبير على انتشار معظم الخرافات والمعتقدات بين العامة لأنها مازالت تجذب عددا هائلا من الزوار الذين تدهشهم قصص الأولياء " ... قبور الأولياء والصالحين تمثل مكانا مناسباً لانتشار الخرافة بل للإكثار من تفاصيلها العجيبة ، ذلك لأن تلك القبور تجذب الجمهور الغفير إليها لأسباب عديدة وتنتهز جماعة زوارها فرصة الزيارة لتكرار القصص التي نسجت حول أولئك الأولياء فيما يتصل بشهرتهم وتقواهم ومدى تأثيرهم على الذين يؤمنون بقدرتهم العجيبة" (373).

وإضافة إلى ذلك ما كان يرويه بعض المشايخ أو كما يسمى في العامية "الطالب" من تفسيرات تنير الإعجاب والدهشة عند بعض العامة ، إذ أن حكايات الكائنات الغيبية كالجن والأرواح تزيد في ذبوع المعتقدات ، لأن آذان العامة تستسيغ مثل هذه القصص وتجلب انتباههم.

دون أن ننسى محاولات الاستعمار في الماضي لسلخ الشعب من عرويته وأصاليته وثقافته ودينه، حيث استغل بعض الطريقين لصالحه من أجل نشر بعض الخرافات بين العامة.

كذلك من بين الأسباب نجد الأسفار ، الهجرات ، الاكتشافات ، التمازج والتزاوج بين مختلف المناطق ساعد على تفشيها في المجتمع.

أيضا ممارسة الطقوس الجماعية التي كانت تساهم في التقارب والتواصل بين أفراد المجتمع كالوعدات، الزردات التي كانت تدوم عدة أيام ويأتي إليها الزائرون من مختلف المناطق ساهمت في انتشارها ، وكذلك الاحتفالات المختلفة الأخرى (كالأعياد ، الزواج، الختان،..)

372 - نفسه - ص 144 .

373 - محمد قطب - واقعنا المعاصر - المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية - الجزائر 1989 - ص 12.

من بين العوامل أيضا الجهل والأمية والتخلف ساعد بشكل كبير في تفشي عدة معتقدات شعبية كالسحر والشعوذة وجهل أصول الدين والشريعة الإسلامية وضعف الإيمان كان عنصرا هاما في نشرها.

فكانت هذه العوامل من بين الأسباب التي أدت إلى انتشار المعتقدات والخرافات في المجتمعات حيث سيطرت على تفكيرهم الشعبي بشكل رهيب.

إن التشبث بمثل هذه المعتقدات التي أصبحت سبيلا إلى انحراف خطير يهدد الفطرة وعقيدة التوحيد مرده إلى عاملين رئيسيين هما:

1- التخلي عن العلم الصحيح الذي يفضي إلى الإيمان.

2- عدم التحلي بأخلاقيات القرآن الكريم.

كما لا ينكر بعض الأئمة من المسلمين الجهد الذي تبذله الصليبية اليهودية⁽³⁷⁴⁾ من أجل محاربة الإسلام في عقر داره وإرجاع المسلمين إلى سابق عهدهم من جاهلية وتخلف.

وقد اصطلح المصلحون ورجال الدين على تسميتها بالبدع وهي دخيلة على قيمنا ومبادئنا رفضها الشرع ، قرآنا وسنة ، جملة وتفصيلا ، بحيث يقول الرسول صلى الله عليه وسلم "ان الله حجب التوبة عن كل صاحب بدعة حتى يدع بدعته"⁽³⁷⁵⁾ ، فالموقف من المعتقدات التي لا تتفق وتعاليم الدين الإسلامي هو التزمّت والتحيز للو³⁷⁶ازع الديني.

374 - الحديث الشريف - الحافظ زكي الدين - الترغيب والترهيب .

375 - دار إحياء التراث العربي - بيروت 1968 .